

## قينا: بداية نهاية الاستعمار العثماني لاوريا

سامي مدالو

مقدمة

"وقفنا على ابواب قينا". بهذه العبارة يحاول بعض الاتراك الى يومنا هذا التباهي بالماضي المجيد للامبراطورية العثمانية ونسيان واقعهم الحاضر. ان معظم الاتراك المعاصرين يعتبرون القرون الستة للحكم العثماني في الشرق الاوسط والبلقان بمثابة العصر الذهبي للامبراطورية العثمانية والاسلام، حين حكموا عشرات الدول والشعوب: من هنغاريا الى اليمن ومن تونس الى اذربيجان. فهم لا يفهمون مطلقاً، لماذا تعارضهم الشعوب العربية وشعوب البلقان برأيهم هذا. فبدلاً من تعابير العظمة والبهاء، تغضبهم تعابير: "الخطر التركي"، "الوباء التركي"، "الأسلمة القسرية" أو "رجل اوريا المريض"، التي تستعملها عادةً تلك الشعوب التي رضخت مئات السنين تحت وطأة الاستعمار العثماني الغاشم.



الحصار العثماني لقينا عام 1529

لا زالت بذاكرتي الحكايات المؤلمة لكبار السن في بلدي عن حياتهم تحت تعسف الحكم العثماني الذي كانوا يسمّوه بـ"العصملي". فخوفاً من التجنيد الاجباري، كان الرجال يختبؤون في حفر ارضية - أودت بعضها بسبب الغازات السامة بحياتهم - أو يهربون الى الجبال القريبة ويرجعون سرّاً بين الحين والآخر اثناء ظلام الليل. لأنهم كانوا يعرفون جيداً ما الذي سينتظرهم، ان نجحت "جاندرمة" الاتراك بالقبض عليهم وتجنيدهم القسري. وكانوا يعلمون ايضاً، بأنهم سيُرسلون الى مناطق نائية ليحاربوا شعوباً، ربّما لم يسمعوها بأسمها من قبل، وتقديمهم ككبش الفداء أو "كحطب للحرق" كما يقول الالمان، من أجل قضية لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

كتب لي أحد الاقرباء من بلدي، بعد علمه بفكرتي بكتابة هذا البحث مايلي:

حدثني والدي (كان من مواليد 1881) عن الحوادث المؤلمة التي شاهدها ولمسها في الحرب العالمية الأولى (سفر بلك = النفير العام) التي اشترك فيها كجندي سيق إليها ثلاث مرات. فقال والدي: "كنا نساق كالعبيد أو كالأغنام مشياً على الأقدام الى تركيا وخارج تركيا، ومن يتعب منا من السير او يمرض في الطريق، يخرج الجاويش من الرتل ويطلق عليه عدة طلقات ويتركه على قارعة الطريق جثة هامدة ... ونستمر في السير وكأن شيئاً لم يكن". وذاق الوالد سجونهم والكرانتينة. وقال والدي: "كانوا أمامنا يختارون أشخاصاً، لا على التعيين، بل اعتباطياً، ويطلقون عليهم الرصاص في ساحة عامة ويقولون هذا جزاء من يهرب، وهم لم يكونوا من الهاربين، بل لغرض تخويف الجنود الآخرين ولسوء حظ أولئك المساكين الذين وقع عليهم هذا الاختيار الاعتباطي المميت."

### بدايات الإمبراطورية العثمانية

بدأت الإمبراطورية العثمانية بشكل متواضع كإمارة صغيرة في غرب الأناضول وكواحدة من الدول التي أسسها السلاجقة - الذين كانوا آنذاك حكام العالم الإسلامي - كسدّ ضد الإمبراطورية البيزنطية. تمكن عثمان غازي الأول (1258-1326)، مؤسس الدولة العثمانية، من انتزاع مدينة بورصة الواقعة في شمال غرب تركيا الحالية من البيزنطيين، مُعلنها عاصمةً لدولته الحديثة. أما أورخان غازي، ابن عثمان، فتمكن من إخضاع ما يقارب كل غرب الأناضول لحكمه. ولكن الخطأ الذي ارتكبه القيصر البيزنطيني بالسماح لجيش أورخان بعبور مضيق الدردنيل (حوالي 1354)، يعتبر تاريخياً من أهم أسباب ازدياد قوة الإمبراطورية العثمانية وتوسيع مناطق حكمها، إذ تمكن العثمانيون بعد ذلك من احتلال جميع بلدان البلقان تقريباً، في معارك عديدة ناجحة.



السلطان العثماني الشهير سليمان الأول فشل في اقتطاف "التفاح الذهبي"

لقد سمح القيصر البيزنطيني لجيش أورخان بعبور مضيق الدردنيل، آملاً بأن العثمانيين سيقضون على الدولة البلغارية التي كانت قد استعادت قوتها من جديد وبدأت تهدد الإمبراطورية البيزنطية بطموحها العلني بالتاج البيزنطيني. ان هذا كان خطأ سياسياً جسيماً، ذو أهمية تاريخية هائلة وعواقب خطيرة. إذ أدى الانقسام بين هاتين الدولتين، المتقاربتين ثقافياً واجتماعياً، في النهاية إلى سقوط كليهما على أيدي العثمانيين. فلو كانتا متحدتين لكان بإمكانهما بسهولة هزيمة العثمانيين والقضاء على "الخطر التركي" في مهده.

فخلال 180 سنة التالية لعبوره مضيق الدردنيل، تمكن الجيش العثماني من احتلال جميع بلدان البلقان تقريباً، التي سقطت مثل قطع الدومينو الواحدة تلو الاخرى: ففي عام 1365 تم احتلال أدريانوبل (أدرنة)/ و صربيا (معركة كوسوفو) في 1389/ وبلغاريا في 1396/ وكوستانتينوبل (القسطنطينية) في 1453/ واليونان في 1460/ والبوسنة في 1463/ وألبانيا في 1478/ والجبل الأسود في 1498. وأخيراً: في 29 آب 1526 انتصر الجيش العثماني انتصاراً ساحقاً على الجيش المجري - البوهيمي في معركة موهاج، مكبداً اياه 24 ألف قتيلاً، من ضمنهم الملك الهنغاري الشاب لودفيغ الثاني بعمر يناهز 20 عاماً.

### الأتراك يحاصرون فيينا - المرة الاولى

على اثر هذا الانتصار الكبير استطاع السلطان العثماني سليمان الأول ( الملقب بالقانوني)، احتلال غالبية اراضي هنغاريا وكرواتيا، بحيث امتدت سلطته الى ابواب فيينا تقريباً. وهنا بدأت الكارثة لفينا، أي ثلاث سنوات قبل الحصار الأول عليها. كانت فيينا آنذاك الحصن المسيحي المهم والآخر في وسط اوربا ومعقل الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية، مشكّلة بذلك عقبة أمام السلطان العثماني في طريقه الى نهر الراين (الواقع في غرب المانيا)، لتكملة الاستيلاء على اوربا المسيحية بكاملها. ولكن فيينا، التي سمّاها العثمانيون بـ "التفاح الذهبي"، لم تكن مهينة قطعاً لصد هجوم لجيش ضخم، فبدت لقمة سائغة وهدفاً يسيراً للعثمانيين، بل وخاسرة للمعركة قبل ظهور قوات العدو أمام اسوارها.



### فيينا اثناء الحصار التركي عام 1529

استغرق جيش عثماني جرّار، قوامه 150 ألف عسكري، خمسة اشهر في طريقه من أدرنة الى فيينا. وفي بداية ايلول عام 1529 وصلت الطليعة المؤلفة من 20 الف من الخيالة العثمانية الخفيفة (أقنجي) الى حوض فيينا. كان هؤلاء الأقنجية جنوداً غير نظاميين، معظمهم من النتر، بدون راتب او اجور. واجبهم الاساسي وممولهم الرئيسي كان السطو والسلب والنهب للحصول على اكبر عدد من الغنائم. والأنكى من ذلك، كانت التجارة بأسرى الحرب من عسكريين ومدنيين وبيعهم كعبيد. بسبب بطشهم وجرائمهم كان الاوربيون يرتعشون بمجرد السماع بقدمهم. بل وحتى الجنود الاترك النظاميين كانوا ينعتوهم بالمجانين.

### "المجانين" يقتلون ويستعبدون

اعتقلت أو قتلت خيالة الاقنجية اكثر من 5000 مدني في محيط فيينا، وعاثوا في البلد فساداً. فسجّل مؤرخ تركي حول تلك الأحداث آنذاك:

"لقد امتلأ هذا البلد الجميل بالدخان، وكل ما تبقى من البيوت والقصور كانت مجرد تلال من الرماد. فأحرقت عائلات الكفار ودُمِّرَ بلدهم بالكامل. وأمّا الوجوه الجميلة فتم بيعها في الخيم والأسواق ... ولم تكن للغنائم نهاية.".

ألا تذكرنا هذه الافعال الاجرامية بما قامت به في عصرنا عصابات داعش المجرمة وامثالها في العراق وسوريا وغيرها من البلدان؟ اذ لم تكن هذه الجرائم مجرد تجاوزات فردية لبعض الوحدات، بل كانت استراتيجية تركية دائمة، غرضها كسر مقاومة العدو نفسياً وعسكرياً من خلال القتل والإرهاب والاعتصاب ضد السكان المدنيين المسالمين.

ومن ناحية اخرى، كانت فرق الانكشاريين القوة الفعلية الضاربة وراء نجاحات العثمانيين العسكرية. تلك النخبة من المشاة في الجيش العثماني، التي كانت تُشكّل من جنود يتم اختطافهم كفتيان من عائلات مسيحية من البلقان. ثم يُفصلون عن ذويهم وأصولهم ويُرحّلون الى تركيا، حيث يتم غسل عقولهم وتحويلهم قسراً إلى الإسلام. ويُربّون تربية إسلامية صارمة ويُدرّبون على فنون الحرب والقتال لا غير، فلا يسمح لهم بالزواج خلال خدمتهم العسكرية، ويُلقّنوهم بأن أسرهم هي الفيلق الانكشاري وان السلطان والدهم.



الانكشاريون

ان هذا العمل اللانساني والمنافي للاخلاق والتقاليد، حفر آثاره العميقة في نفسية شعوب البلقان، مشكّلاً بذلك احد الاسباب الرئيسية للمرارة والكره الذي لا تزال تكنه تلك الشعوب لحد اليوم تجاه الاتراك والمسلمين عامةً. ولا شك ان هذا هو السبب الرئيسي الآن في رفض تلك الشعوب استقبال لاجئين مسلمين من أي بلد كان.

## السيف المعقوف والأسلحة النارية

تم بناء حصن قيينا في القرن الثالث عشر، فاقداً بمرور الزمن الكثير من فاعليته، مقارنة بالتطور السريع الحاصل في قوة المدفعية. فلم يبقَ اذن أمام المدافعين عن قيينا سوى خياراً واحداً، وهو تحصين جميع بوابات المدينة بالحيطان، باستثناء بوابة واحدة فقط. وفي 25 أيلول وصل الجزء الأكبر من الجيش التركي برئاسة ابراهيم باشا أمام ابواب قيينا. وبوصول السلطان سليمان الاول في اليوم التالي ونصب خيمته في وسط معسكره الضخم، بدت هزيمة قيينا مجرد مسألة وقت.

الأ ان تفوق العثمانيين العسكري، لم يُثن سكان قيينا من التضحية والدفاع عن مدينتهم ببسالة. فاحتشدوا حول عمدة مدينتهم، في الوقت الذي كان فيه قيصرهم منشغلاً في الحرب ضد فرنسا. ولكن لحسن حظ قيينا، كان قائدها العسكري والبالغ من العمر 70 عاماً، رجلاً متمرساً وذو خبرة عسكرية كبيرة، سبق له ان خاض معارك ناجحة ضد الفرنسيين في ايطاليا. الا ان جيش الدفاع عن قيينا كان بحدود 17.000 رجل فقط، متشكلاً من خليط من ميليشيا ومرترقة.



القيصر كارل الخامس كان يحارب ضد فرنسا  
اثناء الحصار العثماني لقيينا عام 1529

نقطتان سلبيتان ادتا الى اضعاف الموقف العثماني برغم تفوقه العددي الهائل، اولهما: المدفعية العثمانية الثقيلة بقيت عالقة في طرق المجر الموحلة، و300 مدفع متوفر كانت جميعها من العيار الخفيف. والنقطة الثانية كانت سوء تسليح المشاة العثمانيين. فكان فقط فيلق النخبة الانكشارية (20.000 عسكري)، مسلح بسلاح ناري. أما بقية المشاة الاتراك فكانوا مسلحين أما بالسيف المعقوف او بالقوس والسهم. وبعكس ذلك، كانت غالبية المدافعين عن قيينا تملك بندقية.

في 29 ايلول نفذ الانكشاريون هجومهم الأول على البوابة الجنوبية لقيينا. وهنا تمكن 3.000 من المدافعين عن قيينا من الصمود امام الهجوم، منتظرين مجيء المساعدة، فتم ردّ الاتراك وتكبيدهم خسائر كبيرة. ولاثبات عدم خوفه من الاتراك، تجرأ احد القادة العسكريين النمساويين بالخروج من السور في الثاني والسابع من تشرين الاول والهجوم المفاجئ على الاتراك بفصيلة من 8.000 شخص، فنشبت معركة طاحنة امام البوابة. ان هذه الافعال الجريئة لم تستطع بالطبع رفع الحصار، الا انها عززت معنويات المدافعين بشكل كبير.

## الاتراك يجبرون الاسرى بزرع الالغام تحت سور فيينا

بالرغم من بدء ظهور تأثير المدفعية التركية شيئاً فشيئاً للعيان، بدأوا بحفر انفاق تحت السور، مسخريين بذلك أسرى بتلغيمها. اخصائيون نمساويون ذو خبرة في المناجم تمكنوا من تعطيل مفعول اكثرها. بعد ظهر يوم 9 تشرين الاول، انفجر اللغم الاول تحت السور. وبين 10 الى 14 تشرين الاول انفجرت 4 الغام اخرى، تمكن الانكشاريون على اثر ذلك من اختراق الجدار المهدم، الا ان فصيلة من المدافعين تمكنت في اللحظة الاخيرة من صد الهجوم فاضطروا للهرب.

ثلاثة اسابيع مضت منذ بدء الحصار والاتراك لم يحققوا أي انتصار يُذكر. من يستطيع الآن تصديق تلك الارقام الخيالية: 22.000 جمل و 600 سفينة على نهر الدانوب (نعم 22 الف جمل و 6 مائة سفينة) كانت تقوم بتمويل العثمانيين بالطعام والذخيرة. الا ان كل هذه المزايا لم تساعد الاتراك في النهاية في احتلال فيينا. ففي 14 تشرين الاول تكبد الاتراك خسائر فادحة في هجوم آخر على سور المدينة.

بتاريخ 17/16 تشرين الاول، أي بعد 3 اسابيع منذ بدء الحصار على فيينا، انسحب الاتراك الفاشلين في احتلالها باتجاه اسطنبول، تاركين وراءهم دماراً وخراباً. فكتب شاهد العيان ومستشار القصر الملكي، بيتر شترن فون لباخ: "قام الاتراك بقساوة وبلا شفقة بخنق كل الاسرى الالمان امام اسوار المدينة. حيث كان صراخ الاسرى البائسين لا يطاق، ما لم تكن قد سمعته فيينا قبل ذلك."

بعد التأكد من انتهاء الحصار، دقت أجراس الكنائس للمرة الاولى في المدينة المحررة، بعد سكوتها التام لمدة ثلاث اسابيع. فأقيم احتفالاً بفداس الشكر في كاتدرائية القديس اسطفان.

لا شك ان تكرار الفشل في محاولات اقتحام فيينا، كان السبب الرئيسي لشكوك السلطان سليمان في نجاح احتلال "التفاح الذهبي"، الذي بدا بعيد المنال وأكبر صعوبة من التوقعات، حيث فقد جيشه 20.000 مقاتلاً ذهب هباءً. أما الاسباب الاخرى للانتهاء المفاجئ للحصار فكانت: بطئ وصول الامدادات، مقرونة بسوء الطقس واستمرار هطول الامطار الغزيرة وتساقط الثلوج المبكر قبل موسمها المعتاد.

## الفشل الثاني والثالث - بداية النهاية

في عام 1683، أي بعد 154 سنة من الحصار الاول، قام جيش تركي، هذه المرة أكبر عدداً وأكثر تهديداً، بحصار فيينا للمرة الثانية. الا انهم فشلوا كذلك من اقتحامها (بالرغم من حصارها 56 يوماً). بلدان اوربية عديدة اشتركت في تشكيل جيشاً بتعداد 75.000 مقاتل لنجدة فيينا بقيادة الملك البولندي جان سوبيتسكي، ، فقام بفك الحصار وألحاق الهزيمة بالأتراك.

كما فشلوا ايضاً للمرة الثالثة والاخيرة في عام 1716 من احتلال فيينا، فلم يستطيعوا هذه المرة حتى من وصولها، حيث تصدت لهم جيوش اوربية اخرى وهم في طريقهم اليها، فألحقت بهم الهزيمة، تاركين وراءهم 20.000 قتيلاً. فاضطروا للتراجع والانهازم باتجاه تركية. فكانت هذه بداية النهاية لسيطرة الاستعمار العثماني على الشعوب الاوربية، الذي لم يجلب لها غير الاستبداد والدمار والتخلف والجهل.